من أيام الصبا

للأستاذ محمود البدوى

كنا خمسة ... خمسة من الشبان المتمردين على الجماعة والخارجين على حدود الناس ، والقاهين مع مرح الشباب ولهوه ... كنا قد انقطعنا عن المدرسة ، وتخلفنا عن الرفاق ، وسرنا مع زرق الشباب وطيشه ، فطُردنا من الأهل وحُرمنا من الصحب ، وتقطعت بنا الأسباب ... وذهبنا على وجوهنا نبغى العيش من التسكع والتشرد وركوب متن الأهواء ... ثم ارتددنا على أعقابنا ، وضمتنا القرية الحبيبة بعد طول شتات ... فانطلقنا نعمل فى الحقول ونشرف على حراسة المزارع ...

وكانت الأيام المشردة قد مسحت ما على أجسامنا من غضارة المدينة وليّنها ، فالتفتْ سواعدنا واشتد عودنا ، وأصبحنا أقوى ساعداً وأعظم قوة من هؤلاء الريفيين الذين يقضون حياتهم بين أحضان الطبيعة ، ناعمين بالحياة الحرة ، فى الهواء الطلق ، والجو المشمس ...

كنا جالسين فى حقل من حقول الزرعة وحولنا الأجران ، والليل ضارب بجرانه والصمت رهيب ... وكنا قد تأخرنا عن زمن الحصاد ، فحرمنا بذلك من أمتع «أيام الصبا» ولهوه ... كنا نقف وراء صفوف الحاصدين ونرقب هذه السواعد القوية وهى تطوى سنابل القمح طيًّا ، وخلفنا الفتيان الأشداء يكومون الأحمال وينيخون الإبل ، ونساء الفلاحين يلتقطن السنبل الساقط ، ويجممن قوت الأيام السود ... وكنا نزجر العجائز الدميمات منهن ، وندع الصبايا الجميلات يتوغلن حتى الحقول ... كانت أسواطنا تخطئ دائماً ... ومع ذلك ، فما تعلمنا القلوب حسرات ، ولا ندمنا على ما فرط منا من إثم ... كنا ذاهبين مع الصبا بقلوب نزقة ، لا تحسب لأوضاع الناس حسابا . نتخذ من عطلة الصيف وأيام الحصاد مرتعاً خصباً لشبابنا الجامح وعواطفنا الجائشة ... ونظل النهار بطوله واقفين فى قلب المزرعة تحت لفح الشمس ، لا نكل ولا نمل ، لأننا نرى فى كل ساعة وجهاً فاتناً صبوحاً من تلك الوجوه القروية النضرة التى تستغرق الطرف ، وإن كانت تعيش فى ظلام الفقر وبؤسه ...

فإذا أقبل المشى انطلقنا وراء الإبل المحملة بالقمح ، وخلفها الجالون يحدونها بأصواتهم الشجية ... حتى نبلغ الأجران ، فتناخ الإبل ، وتفك عنها أحمالها ، وهى تهدر هديراً قوياً كان يبعث فينا النشاط والحماسة والقوة ...

فإذا تمت الأجران وعلت كالأطواد اتخذنا من ظلالها

جائزة بابا نويل

ذكرتنى مقالة « ذوى السلطان » فى بعض أعداد الرسالة الأخيرة بعظيم آخر من المتعاقبين المتعالين كنت مرؤوساً له يوم نشرت ترجمتى لأقاصيص طاغور ، وقد أهديت نسخة منها إليه بمحضر من بعض أصدقائه

قال وهو يتعالم : « طاغور هذا رجل عظيم »

قلت : « هو ممن حازوا جائزة نوبل »

وما كدت ألفظ بكلمة نوبل حتى بدت عليه علائم خيبة الأمل فى وقال فى صوت شديد الدلالة على الأسف : « أو أنت أيضاً تنطقها بالباء »

قلت فما سمتها أفادنا الله بعلمك ؟ فقال هى جائزة بابا نويل وقد حذفت كلمة بابا على سبيل التخفيف، ثم شاعت كلمة نوبل من باب التحريف

قلت أفادكم الله ! وما أحسب الحائزين لجائزة نوبل إلا فرحين مبتهجين لو ردت إليهم الطفولة فاستبدلوا بالجائزة هدية من هدايا بابا نويل

وانصرفت مع أحد الذين حضروا الحديث، فقلت له ما رأيك فيما سمعت ؟

قال : العلم واسع

قلت : والجهل أوسع

عبد اللطيف النشار

وأوكارها أعشاشاً لفراخنا . كان كل شيء في تلك الساعات النزقة اغتصاباً وقسوة . كانت لنا الساعة التي نحن فيها ، لم نكن نفكر في المستقبل ، ولا كانت عيوننا ترتد إلى الماضي . كنا نطوي الشهور في المزارع بين الرياض والغياض ، ولا نرى منازلنا إلا نادراً . كان من الصعب علينا أن نحبس قوتنا الدافقة وحيويتنا العظيمة بين الجدران . كنا كالأعشاب البرية وهي تنمو تحت أشعة الشمس على أتم غراس وأنضجه ، نفتح سواعدنا عند ما يشمشع النور ونستقبل بصدورنا ندى الفجر ، ونود من قوة عضلاتنا لو تقاتل ونرضي تلك الغريزة الفطرية في الإنسان

كنا مسلحين دائماً حول أجسامنا أنطقة البارود ، فإذا أقبل الليل ونزل إنسان العين في سواده ، صوبنا بنادقنا في كبد الفضاء ، وأطلقنا النار وأرسلنا عيوننا وراء سهام البارود النارية وهي تخترق حجب الظلام الكثيف ، وملأنا خياشيمنا برائحة البارود ...

كانت تلك الليالي من أمتع ليالي حياتنا ، وكانت ذكراها تبعث فينا الحماسة والنخوة ... كنا نذكرها وكأننا ننظر إلى حلم جميل ولى

رحنا نسترجع تلك الذكريات الحلوة ونحن جالسون في هذه الليلة الصيفية المظلمة على جرن عال يشرف على أجران المزرعة ، والظلام من حولنا شديد ، والمكان موحش رهيب ...

وكان جرن كبير من الأجران قد ذُرِّيَ وأعد قمحه للمخازن . وكان علينا أن نسهر عليه حتى تنطوي خمة الليل ، فأخذنا نتبادل الأحاديث الممتعة ونطرد النوم بكل الوسائل ... أوقدنا النار ، وشربنا الشاي ، ولمنا البنادق وملأنا خزاناتها بالرصاص

وكان ينهض واحد منا كل ساعة ومعه كلبان من كلاب الحراسة ، فيدور حول المزرعة ويتفقد مرابط الخيل وحظائر الماشية ...

ونهض أحدنا ، وكنا مستغرقين في الحديث فلم نشعر بغيابه ... ، وسمعنا على غرة نباح كلاب شديد قادم من شرق المزرعة ... ثم ومض البارود ، وأز الرصاص ، وملأ الدخان عنان الجو ، فنهضنا مسرعين واتجهنا إلى الناحية التي سمعنا منها صوت الطلقات ... ثم خفنا أن تكون هذه حيلة بارعة لتبعدنا عن المزرعة ، فعدنا إلى مكاننا وأعيننا لا تتحول عن سهام الغيران الحامية ...

وانقطع صوت النار وبقي صوت الكلاب ، وأخذ نباحها يقترب منا ... ثم برز شبح في الظلام ، فصوبنا بنادقنا وهتفنا بالقادم ... فرد علينا اسماعيل (أحد رفاقنا) بصوت أجش ... واقترب منا وهو يلهث ، ووجهه يتصبب عرقاً ، وغدارته تفوح منها رائحة البارود ...

فصحنا في صوت واحد

— هل أصبت ... ؟

— لا ولله الحمد ... وإنما كدت أن أقتل ... وكل ذلك بسبب هذين الملعونين ...

واستطرد وهو يشير إلى واحد من الكلبين

— لن ترافقني مرة أخرى يا مسعود !

فسأله رفيق له :

— هل مررت على القرية ؟

فأجاب في إيجاز متعمد :

— أجل ...

— وهل كان من الضروري ذلك في هذه الساعة من الليل ... ؟

— أجل ... كنت في حاجة إلى تبغ ...

— أكنت في حاجة إلى تبغ أم كنت في حاجة إلى شيء آخر ... ؟

فصمت ولم يجب على أن وجهه كان ناطقاً بفعلته ...

وسأله أحدنا مازحاً :

— أكنت تمس حول المزرعة أم كنت تسطو على بيوت الناس ؟ ... هكذا والله هي الحراسة ...

وضحكنا جميعاً ، وعدنا إلى مكاننا الأول من الحقل ، وجلس اسماعيل ناحية ، وأخذ يمسح بندقيته ، وعلى وجهه سمات من ارتد خائباً بعد جهاد طويل

وسأله أحدنا :

— ولكن لماذا أطلقت النار ... ؟

— أنا لم أبدأ بإطلاق النار ، وإنما هم الذين بدأوا ...

— هم ... ! من هم ... ؟ من الذى أطلق عليك النار ... ؟

— بصر بى بعض الفلاحين عندما نبح هذا الكلب الملعون وظنونى لصاً ... وكنت على قيد أذرع من خبائها ... فأطلقوا النار فى الهواء . فنبت فى جوف الظلام وأطلقت طلقتين معاً .. وجريت ... وحلت لى هذه المطاردة وتصورت نفسى لصاً يبغى السرقة لا مخلوقاً دنيئاً يسطو على خباء امرأة فى غلس الليل وتحت ستاره ! وبادلت الفلاحين الطلقات السريعة . فظنونى عصابة كاملة من الأشقياء ثم راوغت تحت جناح الليل ووليت هارباً

— ما كان أحلاها قتلة ... !

— أجل والله ما كان أحلاها قتلة ... وما كان أطيب وقع النبى على نفسها ... !

وقال عثمان وهو يبتسم ابتسامة عريضة وكان أشد رفاقنا بطشاً وأعظمهم قوة :

— أى مشقة يلقاها الرجل دائماً وهو فى طريقه إلى الرذيلة ومع ذلك لا يزدجر ... !

وصمت برهة ليشعل لفافة تبغ ... والابتسامة لا تبارح وجهه القوى التعابير الدقيق الملامح ... ثم أجاب على سؤاله بنفسه :

— لماذا ؟ أجل لماذا ؟ ألأن ركوب الصعب من الأمور دائماً شائق ، أم لأن الاستيلاء على ما فى حوزة الناس فيه إمتاع ولذة ؟ ماذا كان يحدث يا صاح لو رآك زوجها ... أى موقف حرج ... دفعت نفسك فيه ... وأى مصيدة ؟ أنا أعرف أن المرأة هى علة الشقاء الإنسانى ... كما أنها قد تكون علة هنائه أيضاً ... ذكرتنى أيها الأخ الشهم ... بحادث كدت أن أنساه فما تحدثت به لإنسان ؛ بيد أنى أشعر برغبة قوية تدفعنى إلى أن أقصه عليكم ...

فسررنا وتوقعنا فى حديث صاحبنا مغامرة ممتعة نتسلى بها حتى انبلاج الصبح

ونظرنا إليه فى شوق ولهفة ، وكان قد أطرق ، ثم رفع وجهه وقد غامت عيناه قليلاً ، ثم لانت ملامح وجهه . وأنشأ يقول بصوت واضح النبرات :

— كنت فى التاسعة عشرة من عمرى وفى أول دراستى العالية ، وكان قد مضى على سبعة أعوام فى القاهرة قضيت جانباً منها مع بعض أقربائى ، ومضيت الجانب الآخر مع بعض الأسر الفرنجية التى تنزل عن غرفة من سكنها للطلاب البعيدين عن أهليهم ... وكنت دائماً أتخير الأسر الهادئة الكريمة الخلق . وأقمت مرة مع سيدة أجنبية ، وكانت صبية جميلة وحديثة العهد بالقاهرة . وكان زوجها يعمل سحابة النهار وجزءاً كبيراً من الليل ، وكنت أرجع من المدرسة فى الساعة التى يكون فيها الرجل قد عاد إلى عمله ... ولهذا ما كنت أراه إلا نادراً . وكانت الزوجة مع جمالها دمثة الطبع ، طيبة الأخلاق ؛ فأخذت تعنى بى عناية فائقة : ترتب غرفتى ، وتنظم كتبى ، وترتق ملابسى الممزقة وتعمل لى أكثر مما تعمل لزوجها . وكانت تحب أن ترى ما فى القاهرة من حسن ، فزرنا معاً أجمل الضواحى وأنضر البساتين ، وهى تزداد بى كل يوم تعلقاً وألفة ، حتى توثقت بيننا عرى المودة وأصبحت تترقب عودتى من الجامعة أكثر مما تترقب عودة زوجها من عمله ، وأصبحت ألج عليها غرفتها فى أى وقت ، وأراها على أى حال تكون عليه ...

ومرت أيام وأنا لا أحس بوجود الزوج معنا فى منزل واحد وأصبحنا من وفرة السعادة كأننا فى حلم جميل ...

رجعت مرة إلى المنزل ساعة الظهر فلم أجد السيدة فى ردهة البيت كعادتها ، وكنا فى قلب الصيف ، والحر شديد فتمددت على فراشى ونمت . واستيقظت قبل مغرب الشمس وهتفت باسمها فلم تجب ... فنهضت من فراشى ومشيت نحو فسحة البيت فرأيت باب غرفتها موارباً فأدركت أنها نائمة

وحركت بابها برفق ... ودخلت وعينى على السرير ... فوجدت جسماً ممدداً ملتفاً فى ملاءة بيضاء ... وحلى لى أن أداعبها قبل إيقاظها فتقدمت من السرير حتى قربت منها وجذبت رجلها فلم تتحرك ... فتحولت إلى خصرها ودغدغتها ... ووقفت أرقب حركة جسمها وأنا لا أكاد أتماسك من متابعة الضحك المكتوم ... وتحرك الجسم أخيراً وازاحت الملاءة . وظهرت مقدمة رأس ... رأس صلعاء ... !

فذهلت وسمرت فى مكانى مبهوتاً

— كان وجه زوجها ... ؟

— أجل ...

فانفجرنا ضاحكين ... ولما هدأت عاصفة الضحك عاد الصديق إلى حديثه

— كان موقفاً حرجاً ... فشدهت ... ووقفت ذاهب النفس وجسمي يتصبب عرقاً . ثم رأيت نفسي أقول في غضب بصوت المحموم :

— سأغادر الغرفة يا سيدي ... !

فنظر إلى الرجل دهشاً ... وقال وهو يصعد في بصره :

— ستغادر الغرفة ! ما السبب يا سيدي ! ما الذي جرى ؟

— أثاث الغرفة رث ... ثم هي بعد ذلك متناهية في القذارة

— كيف ذلك يا سيدي وقد جئنا لك بكل شيء جديد ؟

— أبداً إنها غاية في القذارة

وتدفق من فمي كلام لا أعرف له مرمى وكان لا بد من ذلك لأنجو بأعصابي

وعدت إلى غرفتي وأنا لا أكاد أتصور شيئاً مما حدث ، ولازمتني حالة من الهدوء غريبة ... ثم لبست ملابسي وخرجت إلى الطريق ... وهنا عادت إليّ الخواطر وأخذت أتصور الموقف على شناعته وحال الزوج بعد أن يرجع إلى نفسه ويدرك أني كنت متهجماً على مخدع زوجه ... وواضعاً يدي على سريرها ... وجسمها ... !

وظللت جزءاً كبيراً من الليل وأنا متردد بين العودة إلى المنزل أو إيفاد صديق ليجيء لي بمتاعي وكتبي ... ثم رأيت الرأي الأول واتجهت صوب البيت وأنا مقدر كل الأحداث .. وكان الزوجان قد ناما ... وبقيت أساهر النجم حتى الصباح ...

ورأيت الزوجة في اليوم التالي جالسة تقرأ في كتاب على أريكة في الردهة ... فمررت بها وأنا أذوب خجلاً ... وتطلعت إلى وجهها فرأيته لا ينم على شيء مما حدث بيني وبين زوجها ، فقد كانت تبتسم في مرح ... فناظرني هذا وبلغ مني الألم مبلغه

وقضيت بعد ذلك أياماً في البيت ونظري لا يقوى على مجابهة الرجل ، وكان يغيظني منه برودة وهدوءه وامتلاكه زمام أعصابه وكنت أتخيل أنه بلغ مبلغاً هائلاً من خبث الطوية وبراعة الحيلة وأرى في صمته تبييتاً لأمر في نفسه ، وكنت أود لو يثور ويضاربني وتنتهي المعركة بيننا مع أسوإ الفروض

وجاءت عطلة العيد فبارحت الغرفة إلى الريف ولم أعد إليها بعد ذلك أبداً . . . تركتها مخلفاً فيها أمتعتي وكتبي . . . وهي تذكار دائم على أيام هنية

ولا زلت أرى المرأة وزوجها كلما ذهبت إلى القاهرة ... وأغلب الظن أنهما لم يغيرا المنزل ... كما أن الرجل لا يزال على حاله هادئاً بارد الطبع لا تعبر ملامح وجهه عن حزن أو فرح أو أي انفعال نفساني ... أو عاطفة من عواطف الجنس البشري

أما المرأة فقد أصبت بأزمة نوعاً !

* * *

وفرغ صاحبنا من قصته وانطلق يدخن ، وعدنا نشرب الشاي ، وكان الفجر قد قرب وبدت خيوط النور في الشفق ، فدرنا حول المزرعة لآخر مرة ، وكنا قد تعشينا في أول الليل ، فلما دنا الفجر أحسسنا بجوع شديد وكان الطعام سيجيء إلينا عند الشروق ولا طاقة لنا على انتظاره فقد اشتدت علينا وطأة الجوع وأخذت بطوننا تعصرنا عصراً ...

وبعثنا اثنين منا إلى حديقة كروم قريبة ليحملا لنا منها ما يمسك بطوننا . وجلسنا في انتظارهما بصبر فارغ وقد انقطعنا عن الحديث . وإذا بنا نسمع نباح كلاب المزرعة فجأة . فصوبنا أبصارنا تجاه الصوت فرأينا غباراً شديداً يسد عرض الأفق . ومددنا أعناقنا فأبصرنا قطعاناً كبيرة من الضأن قادمة من الطريق الزراعي الكبير ومتجهة إلى بعض القرى القريبة ... وظهر أمامها رجلان ضخمان يلوحان بعصوين طويلتين ... وحول القطيع كلاب كاسرة تطوقه من كل جانب وخلف القطيع امرأة ترتدي دثاراً أسود قاتماً ... وتهش بعصا رقيقة على الغنم وتزجر في صوت رنان كلاب المزرعة عن كلابها ...

وقربت القطعان منا ... وكان أحد الرجلين معلقاً في عنقه مزماراً طويلاً ... أما الآخر فكان يحمل على ظهره قربة ضخمة فيها متاعهم ... وأخذنا نرقب القطيع بعيني الصقر حتى بعد عنا فشيعناه بأبصارنا وبطوننا الخاوية تمزق أحشاءنا . وجعلنا الأحمال الصغيرة التي تتوثب حول القطيع الماضي في طريقه بعيون جائعة ومر في ذهننا خاطر سريع ودون أن نتبادل بكلمة انسللنا في أثر القطيع متجنبين طريقه ... وجرينا شوطاً ، ثم كمنا في جرن كبير من أجران القمح الهش في أقصى المزرعة ومرت قطعان الضأن وملأ خياشيمنا الغبار المتطاير من أرجلها . وكانت المرأة

لا تفتأ تلتفت يمنة ويسرة وتضرب الصنار بعصاها ... وجاوزوا حدود المزرعة وابتدأ الرجل حامل المزمار يزمر ، ومدت القطعان أعناقها ثم تقدمت فى صمت وسكون عجيبين . وانقطعت المرأة بعد صوت المزمار عن الكلام ، وسكنت حركة الكلاب وانقطع نباحها . وكان فى القطيع حمل صغير ما فتئ طول الطريق يتوثب ويركض فى كل اتجاه ، ويضرب برجليه الأرض . فلما سمع صوت المزمار سكن أيضاً واستقام بأعجوبة كسائر رؤوس القطيع ... وكنا قد تهيأنا له لنقتنصه ... فاسمعنا صوت الزمار حتى شلت أيدينا وعجزنا عن الحركة ، وبقينا ممددين على الأرض وعيوننا تتطلع إلى السماء وتتأمل النجوم ... ورجع الزمار الحلو يتردد . كان كأنه مزمار داود يبعث من وراء الأجيال ويدوى وحده فى هذا الليل وهذا السكون . ظللنا فى مكمننا حابسين أنفاسنا ، وصوت الزمار يهفو ، والقطيع يسير ، ونحن نرقبه عن بعد ولا نستطيع أن نتحرك

ورجعنا إلى مكاننا من الحقل ونحن لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة الغريبة التى اعترتنا فى تلك الساعة . أكان ذلك من تأثير الموسيقى ، أم شعور آخر أيقظته الموسيقى

وعاد الرفيقان الذاهبان فى طلب الكروم ... وكان أحدهما يحمل كروماً ، أما الآخر فكان يحمل شيئاً آخر ... كان يحمل حمل الضأن الذى أفلتناه من أيدينا

وأشعلنا النار وشويناه ... وكنا ننظر إلى اللهب الأحمر وهو يشوى لحمه ... ونتصوره منذ لحظات وهو يجرى ويتوثب بين رفاقه مرحاً سعيداً طروباً ، فيعصر الهم أفئدتنا

ولما جلسنا نأكل انقطعنا جميعاً عن الكلام كأن على رؤوسنا الطير . وكانت كل قطعة من اللحم تستقر فى جوفنا تمزق أحشاءنا تمزيقاً ... كنا نتصور أن الحمل لا يزال يجرى ويتوثب والقطيع يسير والزمار يزمر .

محمود البدوى

الفرقة القومية المصرية ـ دار الأوبرا الملكية

برنامج حفلات عيد الأضحى المبارك

اليوم		
اليوم الأول الأربعاء ٨ يناير	القضاء والقدر	حفلة نهارية فقط الساعة ٥ ونصف
اليوم الثانى الخميس ٩ يناير	ماتينيه الساعة ٥ ونصف الفاكهة المحرمة	سواريه الساعة ٨ و٤٥ يوم القيامة
اليوم الثالث الجمعة ١٠ يناير	ماتينيه الساعة ٥ ونصف مجنون ليلى	سواريه الساعة ٨ و٤٥ عيد الذهب
اليوم الرابع السبت ١١ يناير	ماتينيه الساعة ٥ ونصف المهرج والست هدى	سواريه الساعة ٨ و٤٥ القضاء والقدر
الأحد ١٢ يناير حفلة نهارية فقط	لويس الحادى عشر	حفلة نهارية فقط الساعة ٥ ونصف

أسعار الدخول بالعملة المصرية :

بنوار	لوج أول	لوج ثان	ممتاز	مخصوص	صالة	بلكون	أعلى
١٠٠	٧٠	٥٠	١٥	١٢	١٠	٧	٥

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)